ISSN: 1817-6798 (Print)
Journal of Tikrit University for Humanities
available online at: www.jtuh.org/

The Implicit Cultural Pattern of Women in the Black Diaspora Poetry

Asmaa Kamal Abdul Ghani
Al-Nahrain University / College of Engineering

* *Corresponding author: E-mail* :
Asmaa16101980@gmail.com
٠٧٨٢٢١٧٨٨٩٠

***Keywords*:**
Black aliens
Women
implicit cultural pattern

A R T I C L E I N F O

Article history:
Received 29 May 2024
Received in revised form 8 June 2024
Accepted 9 June 2024
Final Proofreading 5 Oct 2024
Available online 6 Oct 2024
E-mail t-jtuh@tu.edu.iq

©THIS IS AN OPEN ACCESS ARTICLE UNDER THE CC BY LICENSE
http://creativecommons.org/licenses/by/4.0/

A B S T R A C T

Due to their fights with the tribe and authority, rejection of pre-Islamic norms and customs, and yearning for existential recognition for black people, the black outsiders' discourses featured numerous underlying cultural patterns. A group of black strangers headed to the desert to escape laws and regulations and enjoy complete freedom, but they suffered from its difficulty and displacement, so they rebelled and rejected to fight injustice, persecution, and racial and class discrimination. They rebelled against the tribal structure and strove to improve their lives via strength, bravery, revolution, and irreversible rejection. They sought to infiltrate the social norms and system based on the sanctification of the pure race and the condemnation of the hybrid race, which had always suffered from them and aspired to alter. The black foreign poets had a unique poetic character, and much of their work has survived in pieces. With their unstable lifestyle, which may have been due to their ostracism and expulsion from society, they had little contact with the narrators from among the people, and their poetry was mostly subjective, so their poetry for women included implicit cultural patterns to address the problems they suffered, especially those who suffered. They blended blackness and blackness, which led me to direct my research to interpret the underlying cultural pattern of women among these poets in line with current critical thinking.

© 2024 JTUH, College of Education for Human Sciences, Tikrit University

DOI: http://doi.org/10.25130/jtuh.31.10.2024.03

النّسق الثّقافي المُضمر الخاص بالمرأة في شعر الأغربة السُّود

أسماء كمال عبد الغني/ جامعة النهرين / كلية الهندسة

الخلاصة:

حظيت خطابات (الأغربة السُود) الكثير من الأنساق الثقافية المضمرة نتيجة صراعاتهم مع القبيلة والسلطة ورفضهم للقوانين والقواعد المجتمعية التي كانت سارية في العصر الجاهلي وبحثهم عن الاعتراف الوجودي لذوي البشرة السوداء, فنجد مجموعة من هؤلاء الأغربة السود اتجهوا إلى الصحراء وانتقلوا من

حياة مقيدة بالقوانين والانظمة الى حياة جديدة تمتعوا من خلالها بالحرية التامة لكنهم في مقابل ذلك عانوا من صعوبتها والتشرد فاتخذوا من التمرد والرفض نهجاً جديداً لحياتهم محاربين الظلم والاضطهاد والتميز العرقي والطبقي وثاروا من أجل التحرر من النظام القبلي فحاولوا تغيير حياتهم للأفضل عن طريق القوة والشجاعة أحياناً والثورة والرفض الدائم أحياناً أخرى , كما وحاولوا اختراق الاعراف والمنظومة الاجتماعية القائمة على تقديس الجنس النقي وذم الجنس الهجين وهذه الأعراف الاجتماعية لطالما عانوا منها وطمعوا بتغييرها , وتجدر الاشارة إلى ان الشعراء الأغربة السود تميزت طبيعة اشعارهم بروحهم الشعرية المختلفة التي لاتشبه غيرهم من الشعراء كما ان جل شعرهم وصل الينا مقطعات وذلك تماشياً مع نمط الحياة التي عاشوها والتي أتسمت بعدم الاستقرار وربما يعود سبب ذلك أيضاً الى أن نبذهم وطردهم من المجتمع لم يحقق لهم الاتصال الكبير مع الرواة من الناس كما وغلب على شعرهم الذاتية , فجاء شعرهم الخاص بالمرأة ينطوي على أنساق ثقافية مضمرة لمعالجة مشاكلهم التي عانوها خاصة الذين جمعوا السواد والصعلكة معاً, مما دفعني إلى توجيه مسار هذه الدراسة لقراءة النسق الثقافي المضمر الخاص بالمرأة لدى هذه الفئة من الشعراء وفق توجهات الفكر النقدي الحديث.

الكلمات المفتاحية

(الأغربة السُّود, المرأة, النّسق الثقافي المُضمر)

مقدّمة

لم يقم المجتمع الجاهلي على أساس الوحدة السياسية أو النظام الحكومي لكنه عرف نوعاً من التنظيمات السياسية (وجود إمارات سياسية مثل إمارة المناذرة , وإمارة الغساسنة, وإمارة كندة) بل قام على العصبية القبلية التي تضمنت مجموعة من الأسس والمبادئ تحوي أعرافاً وأنظمة خاصة وعادات وتقاليد متشددة من أجل خدمة القبيلة وأبنائها الأقحاح دون اهتمامها لباقي الأفراد ومنهم (الأغربة السود) الذين عانوا من تلك العصبية , فالعصر الجاهلي "كان نظامه الاجتماعي يقوم على اساس القبيلة التي يكون بنائها على العصبية, سواء كانت عصبية قبلية أم عصبية رحم. ولما كانت عصبية الرحم تمثل عنصر القربى من الدرجة الأولى فعصبية القبيلة تأتي من الانتماء لجد واحد أو أب مشترك للقبيلة كلها" (زيدان,٢٠٠٢: ٤٦-٤٧) وهذه العصبية كانت "...ناتجة عن الشعور بوحدة الأصل الذي أدركوه بأنسابهم, وكانت وحدة الدم بالتالي هي الأساس لهذه الرابطة" (النص ,١٩٦٣ :٦١) كما انه أتخذ من عراقة الأصل وصفاء النسب مقياساً مهماً لتحديد مواقع الافراد في المجتمع , لذلك نجد العربي يحرص على إبقاء نسبه نقياً لا يشوبه عنصراً غريباً , لذا كان سواد اللون علامة على هجينيتهم وشائبتهم التي ميزتهم وكانت العامل الأكثر قهراً لهم بعدّها سبة وعارا وعلامة من علامات النقص والامتهان والعبودية ولا غريب في هذا اذ

انهم نشأوا في قوم يعشقون اللون الابيض ويرفعون من شأنه ويعدونه علامة على حسن الخُلق والخَلق وسمو الطباع ومكارم الاخلاق.

وبظهور الدين الأسلامي الذي جاء لوضع " النقاط على الحروف وألغي كل العادات والتقاليد السيئة التي كانت قد ورثت قبل الاسلام" (Damen,M.S. ٢٠٢٢,مجلة جامعة تكريت, ٢٩ (٢) :٣٩٩-٤١٣) وازالة جميع الفوارق الطبقية وكسر جميع القواعد القبلية الخاصة بالتمايز اللوني ويدعو الى المساواة بين الناس فلا يفضل جنساً ولا لوناً, نرى اتجاه أكثرهم الى اعتناق الإسلام للتخلص من معاناتهم وفق مبادئه السمحة وأملاً للخلاص من العبودية والمهانة وطمعاً للعدل الاجتماعي الذي يدعو له وتحقيق الذات وخير ما يمثل ذلك قوله تعالى:((يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ)) (سورة الحجرات:١٣).

اضاءات حول مصطلح الاغربة

إن مجرد الإستماع الى مصطلح (الأغربة السود) يتبادر في الذهن طائر الغراب والذي ارتبطت دلالة ذكره عند العرب بالشؤم والنحس اضافة الى بشاعة صوته الى وقتنا الحالي, فاجتمعت الاراء والتعريفات الى أن هذه التسمية مأخوذة من طائر الغراب, فأبن منظور(ت ٧١١هـ) عرفهم بقولة "أغربة العرب: سودانهم" (ابن منظور,١٩٩٥:مادة(غرب)) وقد وافقه بذلك الفيروزأبادي(ت١٤١٥هـ) في قاموسه المحيط فقال: "أغربة العرب : سودانهم...والأغربة في الجاهلية عنترة,وخفاف بن ندبه, وأبوعمير بن الحباب ,والسُليك بن السلكة , وهشام بن عقبة بن أبي معيط, الا أنه مخضرم قد ولي في الإسلام " (الفيروزأبادي,٢٠٠٣:مادة(غرب)) أما الزبيدي(ت١٢٠٥هـ) فقد أرجع سبب سوادهم إلى أمهاتهم فقال:" وكلهم سرى إليهم السواد من أمهاتهم" (الزبيدي,١٩٧٤:مادة (غرب)) وقد اضاف السيوطي(ت٩١١هـ) اليهم اسماء اخرى فقال:" الأغربة في الجاهلية, يعني السودان: عنترة وخفاف بن ندبه السلمي...,وسليك بن السلكة...,وهشام بن عقبة بن أبي معيط مخضرم, وتأبّط شرّاً, والشنفرى" (السيوطي,١٩٨٧: ٢١٧) ويبدو أن المعاجم اللغوية هي الأخرى كانت مجحفة بحق هؤلاء الاغربة اذ وضعت اللون اساساً للتصنيف الاجتماعي ,فأنتهى بهم الأمر إلى أنهم لم يلقوا الأنصاف والعدل في بيئتهم وقبائلهم التي نشأوا وعاشوا فيها ولا في المعاجم وكتب اللغة والتاريخ التي تحدثت عنهم فيما بعد , فالأغربة هم"أولئك السود الذين سرى إليهم السواد من أمهاتهم الإماء, فلم يعترف بهم آباؤهم العرب, ولم ينسبوهم إليهم, لأن دماءهم ليست عربية خالصة, وإنما خالطتها دماء أجنبية سوداء لاتصل في درجة نقائها إلى درجة الدم العربي " (خليف,١٩٥٩: ٥٨).

اضاءات حول مفهوم النسق الثقافي لغةً وأصطلاحاً:

لقد عرف علماء الفلسفة النسق لغةً ومنهم ابن منظور فذكر "إن النسق في اللغة هو ما كان على نظام واحد في كل شيء" (ابن منظور,١٩٩٥, ج١٢٧/١٤) أما علماء الاجتماع فقد كثرت آرائهم حول (النسق) نذكر منها رأي رادكيف بروان(Radcliffe-Brown) بأنه :"مجموعة معينة من الأفعال والتفاعلات بين الأشخاص الذين توجد بينهم صلات متبادلة" (هولتكرانس ,١٩٧٢: ٣٤٧) أما كريزويل فقد وصف النسق بأنه" نظام ينطوي على استقلال ذاتي يشكل كلاً موحداً وتقرن كليته بآنية علاقاته التي لا قيمة للأجزاء خارجها..." (كريزويل,١٩٩٣: ٤١٥)

ثم جاء الناقد الكبير الغذامي الذي كانت لجهوده دور مهم في توضيح مصطلح (النسق الثقافي) حين طرحه كمفهوم مركزي في مشروعه النقدي: كتابه (النقد الثقافي: قراءة الأنساق الثقافية العربية) فعرف الأنساق بأنها "أنساق تاريخية أزلية وراسخة وعلاماتها هي اندفاع الجمهور إلى استهلاك المنتوج المنطوي على هذه الانساق" (الغذامي وآخر,٢٠٠٤: ١٩٧) كما أشار الى ان قيمته ودلالاته وسماته تتحدد عن طريق الوظيفة التي يؤديها في النص والتي تتحقق "حينما يتعارض نسقان أو نظامان من أنظمة الخطاب أحدهما ظاهر والآخر مضمر, ويكون المضمر ناقضاً وناسخاً للظاهر. ويكون ذلك في نص واحد,أو فيما هو في حكم النص الواحد , ويشترط في النص أن يكون جمالياً ,وأن يكون جماهيرياً . ولسنا نقصد الجمالي حسب الشرط النقدي المؤسساتي ,وإنما الجمالي هو ما عدّته الرعية الثقافية جميلاً" (الغذامي,٢٠٠٥: ٧٧) كما أشار إلى أن مشروعه النقدي "يتجه إلى كشف حيل الثقافة في تمرير أنساقها تحت أقنعة ووسائل خافية , وأهم هذه الحيل هي الحيلة(الجمالية)التي من تحتها يجري تمرير أخطر الأنساق وأشدها تحكماً فينا. وأمر كشف هذه الحيل يصبح مشروعاً في نقد الثقافة , وهذا لن يتسنى إلا عبر ملاحقة الأنساق المضمرة ورفع الأغطية عنها." (الغذامي,٢٠٠٥: ٧٧) من ذلك نستنتج إلى أن القراءة الثقافية تسعى إلى إعادة قراءة النصوص الادبية والتي تتضمن في بنيتها أنساقاً مضمرة وخفية قادرة على المخاتلة والمراوغة والتخفي خلف كل ماهو جميل ولا يمكن الكشف عن دلالاتها الا عن طريق القراءة الدقيقة والتحليل لكشف المضمر واستخراجه وتأويل النصوص بوصفها بنى ثقافية والتصور الكلي لطبيعة هذه البنى من النواحي الثقافية والتاريخية للمجتمع .

دافعية توالد الأنساق الثقافي الخاصة بالمرأة في شعر الأغربة:

لقد كان لحضور المرأة شيئاً اساسياً في معمار القصيدة عند الجاهليين وقد اشار الى ذلك ابن قتيبة(ت٢٧٦هـ) بقولة:" سمعت بعض أهل الأدب يذكر أن مقصد القصيد إنما ابتدأ فيها بذكر الديار والدمن والآثار , فبكى وشكا وخاطب الربع , واستوقف الرفيق, ليجعل ذلك سبباً لذكر أهلها الظاعنين (عنها)... ثم وصل ذلك بالنسيب, فشكا شدة الوجد, والم الفراق, وفرط الصبابة والشوق , ليميل نحوه

القلوب ويصرف إليه الوجوه, وليستدعي (به) إصغاء الأسماع (إليه), لأن التشبيب قريب من النفوس , لائط بالقلوب, لما (قد)جعل الله في تركيب العباد من محبة الغزل , وإلف النساء..." (الدنيوري, ج١/٧٤-٧٥) ومن هنا نلاحظ الحضور البارز للمرأة في القصائد سواء أكان حضورا فعليا معبراً عن الحبيبة او الأم او الأخت او أي امرأة أو حضورها كرمز وقناع دال على شيء معين يقصده الشاعر, لكن حضور المرأة عند الشعراء الأغربة السود كان مغايراً عن حضورها عند غيرهم من الشعراء الجاهليين وذلك تأثراً بطبيعة الحياة الشظفة التي عاشوها الناتجة عن النفي والانتباذ من قبل قبائلهم, فكانت صورة المرأة الضعيفة الضحية تتصدر القائمة ويظهر هو(الشاعر) الى جانبها بطلاً مغواراً مستهيناً بحياته من أجل تحقيق غايته وترسيخ فكرته (أنظر بتصرف,خليف,١٩٥٩: ١٠٦) وربما يقومون باستدعاء المرأة في خطاباتهم التي تحمل نسقاً ظاهريا وآخر مضمرا مخاتلا يحمل دلالات معينة قصدها الشاعر فمن خلال القراءة الثقافية لبعض الخطابات الشعرية للشعراء الأغربة السود وجدت الأنساق الثقافية المضمرة الخاصة بالمرأة لديهم اتخذت صوراً متعددة على النحو التالي:

المرأة/ نسق التمرد بسبب اللون

يعد عنترة من شعراء الأغربة السود الذي ورث سواده من أمه الحبشية زبيبة أمة أحد كبار العرب من بني عبس هو شداد العبسي والد عنترة, وقد كانت العرب تحتقر وتمتهن الإماء وتمارس بحقهن أشد أنواع القسوة والامتهان حتى اصبحن ملكاً للجميع فالإماء "تنتمي الى الطبقة الثالثة من النساء في المجتمع العربي بعد طبقة الحرائر وطبقة السبايا , فالسبية كانت وقفاً على رجل واحد, أما الأمة فكانت شيئاً مشاعاً بين الجميع" (بدوي,١٩٨٨: ٣٣) لذلك نرى عدم اعتراف أبيه له على الرغم أنه ولد من أمته زبيبة, فأبن السبية يُعترف به لكن أبناء الإماء لم يكن العربي يجيزه ويقر به, وهذا ما زاد من معاناة هؤلاء الأغربة ومنهم عنترة وكان سبباً أساسياً في تكوين شخصيتهم وتمردهم وتوجيه أشعارهم لسد هذه الثغرة في حياتهم.

ويتجلى نسق التمرد بسبب اللون في مجموعة من الخطابات الشعرية لعنترة بن شداد نذكر منها النص الشعري الذي يقول فيه:

وأنـــا ابـــنُ ســـوداءِ الجبـــين كأنهـــا ... ضـــبعٌ تَرَعْـــرع فـــي رُســـوم المنْـــزلِ

الســـاقُ منهـــا مِثْـــلُ ســـاقِ نَعامـــةٍ ... والشـــعر منهـــا مِثـــلُ حـــبِّ الفُلْفُـــلِ

والثَّغـــر مِـــن تحـــت اللِّثـــام كأَنَّـــه ... بَـــرْقٌ تـــلألأَ فـــي الظـــلام المُسْـــدَلِ

(ديوان عنترة ,٢٠٠٩: ١١١) إن القراءة الفاحصة لهذه الأبيات تكشف لنا دلالة نسقية مضمرة متوارية ومختفية خلف المعنى الظاهري وهي دلالة (نسق التمرد) الذي يحمل دلالات ابعد من مجرد الخروج

على الأنظمة القبلية الجائرة بل هو تمرد على المستوى الفكري والنظري بين الشاعر والمجتمع, فمقاييس الجمال لدى الشاعر تخالف ماكان مألوفا عند قومه فيقدم الشاعر نسقاً مضاداَ لرؤية الآخر التي تعتبر الجمال يتجلى باللون الأبيض ونبذ وأقصاء اللون الأسود, أن رؤية ذات الشاعر توضح أن الصفات الشكلية للإنسان ليست حكماً أساسياً لتحديد مواطن الجمال والقبح , لذلك كان ايقاع الخطاب يتناسب مع معطيات الصورة الشعرية, وبين النسق الظاهر والنسق المضمر ينتج بينهما نسق ثالث وهو الذي " يتكون من نظامين لايمكن أن يتآلفا , ينشط الأول منهما في إطار المعاني والقيم والاختيارات العقلانية والغايات" و(ميويك,١٩٨٢: ١٠٨) لعل صفات الأم الحبشية كانت جسراً للعبور الى النسق الثالث وهو نسق التغزل بهذه الصفات وتفضيلها بل وتشبيهها بما تتحاشاه العرب وتتفاداه وهو الضبع, فسواد الجبين وساقاها الشبيهتان بساقا النعامة ضموراً وخشونة وشعرها الأجعد القصير الذي يشبه حب الفُلفُل كلها مقاييس تخالف وتعاكس ما اعتاد العرب على تفضيله واستحسانه حيث كانوا يفضلون الجبين الناصع البياض والشعر المسترسل الطويل والساقان الممتلئة اللينة وبهذا التفضيل يكون قد تمرد على قيم القبيلة سعياً منه بتحويل المهانة والانتقاص من هذه المرأة الحبشية إلى فخر واعتزاز وتجسيد واقع المرارة والظلم والغربة الذي تعاني منه النساء الحبشيات.

ولا يختلف الشنفرى عن عنترة بن شداد في سواده وهجانته اذ يكشف لنا أسمه حقيقة مأساته وانتمائه الى الاغربة السود– والذي يعني الغليظ الشفاه وما هي الا علامة على كونه فرداً هجين تسري في عروقه الدماء الحبشية التي ورثها من امه (ديوان الشنفرى,١٩٩٦: ٩٧) حيث"ورث منها سوادها ولذلك عُدَّ في أغربة العرب" (الضيف,شوقي:٣٧٩) لكنه عاش طريداً متشرداً لم يعرف الاستقرار فذاق قساوة الصحراء واحترق بشمسها اللاهبة بلا مأوى تائهاً طريداً , لذلك احتوت خطاباته الشعرية على أنساق مضمرة قائمة على التمرد ضد العنصرية والتمييز اللوني من ذلك قولة في حادثة الفتاة التي صادفها وطلب منها ان تصب الماء على رأسه ظناً منه أنها شقيقته فدعاها بأخيّة لطمته هذه الفتاة فغضب غضباً شديداً وفقد صوابه جراء ذلك فأنشد هذا الخطاب:

أَلاَ لَيْـــتَ شِـــعْرِي والتَّلَهُّـــفُ ضَـــلَّةٌ ... بِمَـــا ضَـــرَبَتْ كَـــفُّ الفَتَـــاةِ هَجينَهَـــا

وَلَـــوْ عَلِمَـــتْ قُعْسُـــوسُ أَنْسَـــابَ وَالِـــدِي ... وَوَالِـــــدِهَا ظَلَّـــــتْ تَقَاصَـــــرُ دوُنَهَـــــا

أَنَـــا ابْـــنُ خِيـــارِ الحُجْـــرِ بَيْتـــاً وَمَنْصِـــباً ... وَأُمِّـــي ابْنَـــةُ الأَحْـــرَارِ لَـــوْ تَعْرِفِينَهَـــا

(ديوانه:٦٨) هذا النص الشعري يوحي في ظاهره الى حالة الغضب والهيجان من جهة والفخر بالنفس وتهميش الآخر من خلال التفاخر بالانساب من جهة أخرى, لكن المعنى الخفي يحمل نسق مضمر تضمن الفخر بالموضع الذي يكون سبباً للانتقاص منه الا وهو أمه الأمة السوداء فلفظة أبنة الاحرار دلالة نسقية مضمرة دالة على معنى خفي يظهر انعكاسية الحالة من العبودية الى الحرية , فهذا الخطاب

الشعري حقق مقصده على نحو ضمني استخلصناه من خلال القراءة الثقافية لسياق الخطاب والرسالة التي اراد الشاعر ايصالها وتمجيد المضامين التي انحاز إليها, ويبدو أن حضور الفتاة في هذا الخطاب لم يكن حضوراً حسياً وإنما كان نسقاً ثقافياً عبر عنه صوت الشاعر عالياً لمواجهة (القبيلة/ الفتاة) في ظل رفضها لهذا الفرد الأسود الهجين أن يكون أخاً لها فالفتاة هي صورة ورمز للقبيلة الرافضة لهذا الإنتماء والانتساب ولم يكن هذا النبذ والابعاد بسبب جرم اكتسبه وإنما لأنها تراه أقل منزلة من جميع أفرادها فكانت الفتاة معادلاً موضوعياً للقبيلة. وهنا تحرك النسق في ظل سطوة الأنا الرافضة لفكر الآخر القائم على الانتقاص منه حيث تغلل النسق ليحقق وظيفته الاساسية من خلال التمويه والمخاتلة.

كما ان السُليك لم يكن افضل وضعاً من سابقيه (عنترة والشنفرى) اذا انه ايضاً عانى من عقدة اللون الأسود الذي أكتسبه من أمه الحبشية ويظهر لنا نسق التمرد في قولة:

أَشَـــابَ الـــرَّأسَ أنَّـــي كُـــلَّ يَـــوْمٍ أَرَى لِـــي خَالَـــةً وَسْـــطَ الرِّجَـــالِ

يَشُـــقُّ عَلَـــيَّ أنْ يَلْقَـــيْنَ ضَـــيْماً وَيَعْجِـــزُ عَـــنْ تَخَلُّصِـــهِنَّ مَـــالِي

(ديوان السُليك,١٩٩٦: ٩٧) يعرض لنا السليك صور الاهانة والذل الذي كانت تعانيه أمه وخالاته أو كل امرأة امتهنت كرامتها بسبب لونها والذي جعلهن إماء يخدمن الرجال منتهكات للعرض والقيم والأخلاق تتحكم فيهن رغباتهم وشهواتهم الجسدية, وموقفه العاجز عن تغيير ما يتعرضن له من ظلم واشفاقه عليهن وآلمه فصور صعوبة هذا الحال وعظمته في نفسه بحيث يشيب منه الرأس قهراً, دون مقدرته على رد البأس عنهن أو اعتاقهن بسبب فقره , وتكشف لنا القراءة الثقافية للنص نسق مضمر مخاتل خلف المعنى الظاهر الا وهو مدلول الرفض والتمرد الذي يريد أن يظهره السُليك ازاء ثقافة المجتمع التي تقوم على التمييز وتحقير الجنس الهجين ذو اللون الأسود لا فرق بذلك بين الرجال والنساء فهم متساوون في هذا الظلم القبلي , أضافة الى نسق التمرده على فقرة ووضعه الاجتماعي وعبوديته التي جعلته ينشق عن المجتمع بحثاً عن تحقيق الذات وأثباتها أمام الآخر الأبيض.

المرأة/ نسق الرفض

لعل الخطابات الشعرية المتضمنة حوار الأمر والنهي توحي لنا سيطرة قوة عليا على المرتبة الأدنى المأمور(المنهي عن القيام بعمل ما) وخير ما يمثل ذلك موقف تأبط شراً حين رفضته فتاة عبس بعد وعدها إياه الزواج منه , لكنها رغبت عنه فأنصرف عنها وهو يقول:

وَقَـــالُوا لَهَـــا لاَ تُنْكِحِيـــهِ فَإِنَّـــهُ لأَوَلِ نَصْـــلٍ أَنْ يُلاَقِـــيَ مَجْمَعـــا

فَلَـــمْ تَـــرَ مِـــنْ رَأْيٍ فَتِـــيلاً وَحَـــاذَرَتْ تأَيُّمَهَـــا مِـــنْ لاَبِـــسِ اللَّيْـــلِ أَرْوَعَـــا

(ديوان تأبط,١٩٩٦: ٣٨) إن هذا الرجل"... الباحث عن الموت ينتفي معه الاستقرار الأسري الذي تنشده المرأة من حياتها الأسرية – صحيح أن الموت قادم "لا محالة ", ولكن المرأة لاتستطيع ان تأنس إلى زوج يتخذ من فزع الليل ورعبه رداء, فجاء خوفها من الترمل" (زيدان,٢٠٠٢: ١٢٢) لقد كان قرار الرفض قراراً جماعياً قبلياً في أوامر توحي بصدورها من الأعلى الى الأدنى(الفتاة) المنفذة والمنصاعة لتلك الأوامر فهي لاتعصي قبيلتها وقررت العدول عن ذلك لخطر الأرتباط به وهذا مايوحي إليه المعنى الظاهر للنص (فالفتاة) نسق ثقافي ظاهري خاضع تلقائياً لقيم المجتمع بصورة لا شعورية , فرسم لنا الشاعر من خلاله صورة هذه الفتاة التي تظهر عليها علامات الخوف والخضوع لرأي الآخر لا علامات الحب والوفاء بالوعد من خلال ترسيخ الضعف والاستكانة لموقفها وسط حذرها وابتعادها عن مواطن الهلاك والردى خوفاً من التشرد والترمل, لكن في الحقيقة النص يحمل دلالة نسقية مضمرة وهو نسق النظام الاجتماعي القائم على مبدأ استرجاع مواقف الرفض – وهو رفض لطالما عانى منه هؤلاء الأغربة – إضافة الى النظرة الدونية فكانت هذه الابيات كفيلة في ظهور نسق ثالث وهو نسق الشاعر المضاد كرد فعل عكسي ازاء الانتباذ من قبل المجتمع ويتجلى ذلك في الصورة التخييلية الجميلة التي ابدعها الشاعر في بيته الثاني :(لاَبِس اللَّيْلِ أَرْوَعَا).

ونجد نسق الرفض يتجلّى أيضاً في قول السُليك:

أَلاَ عَتَبَـــــتْ عَلَـــــيَّ فَصَـــــارَمَتْنِي ... وَأَعْجَبَهَـــــا ذَوُو اللِّمَـــــمِ الطِّـــــوَالِ

فَـــإِنِّي يَـــا ابْنَـــةَ الأَقْـــوَامِ أُرْبِـــي ... عَلَـــى فِعْـــلِ الْوَضِـــيِّ مِـــنَ الرِّجَـــالِ

فَـــلاَ تَصِـــلِي بِصُـــعْلُوكٍ نَـــؤُومٍ ... إِذَا أَمْسَـــى يُعَـــدُّ مِـــنَ العِيَـــالِ

وَلَكِـــنْ كُـــلُّ صُـــعْلُوكٍ ضَـــرُوبٍ ... بِنَصْـــلِ السَّـــيْفِ هَامَـــاتِ الرِّجَـــالِ

(ديوانه:٨٨) ظاهر الخطاب الشعري يتضمن حوار قائم على عتب حبيبه عليه والتي كناها ب(أبنة الاقوام) حيث قررت مقاطعته وتركة بسبب ذمامته وسواد لونه وقبحه ووضعة الاجتماعي رغم شجاعته وبسالته , وفي مقابل ذلك يصف من نال أعجابها من الرجال الذين كانوا يقضون معظم يومهم كسالا ونيام يطيلون شعورهم ويقتاتون طعامهم عن طريق ذلهم وأهانتهم من قبل الأغنياء , فهؤلاء غير قادرين على تحمل المسؤولية وتوفير احتياجاتها المادية وأن عليها حسن الاختيار وعدم الانخداع بالمظاهر الخداعة لان الرجولة لا تقاس بالمظهر الخارجي بل بالأفعال والمواقف وتظهر لنا شخصية السُليك الحكيم الذي يوصي وينصح الحبيبة بعدم الإرتباط الا بمن يحمل سيفيه في سبيل جمع قوته بنفسه, فمن خلال القراءة الثقافية للنص نجده يتضمن معاني خفية مخاتلة فالحبيبة قناع للقبيلة التي اقصته – اراد به تركت

الفارس واستبعدته واحتضنت الجبناء– بسبب انظمتها وقوانينها الظالمة فتمرد وخرج عليها فهذه المفارقة تحمل نسقين : نسق القرب (رؤية مضادة) ونسق البعد (ثقافة الآخر) فتتجلى أثر هذه المفارقة في أثبات أنا الشاعر التي أقصاها الآخر تحت وطأة النسق الضمني بتحويل نفسه الى الصعلوك النزيه الذي يأبى عن القيام بالأفعال المشينة والوضيعة المنسوبة الى هؤلاء الاغربة بل واشار إلى امتلاكه صفات الرجولة والانسانية التي ربما لا يتحلى بها الرجل الأبيض , فيظهر لنا نسقاً ثالثاً استعلائياً يقصي الآخر ويستعلي عليه في محاولة لرفض الذل والإهانة والمناداة بالتحرر وسعيه في الكشف عن الجانب المضئ لفئة الأغربة المنبوذة في المجتمع.

ولعل الشَنفرى في قصيدته التائية التي قال عنها الاصمعي"هذه الأبيات أحسن ماقيل في حق النساء وعفتهن" (الضبي ,١٩٨٨: ١٠٩) لم تخلُ من انساق مضمرة متداخلة فيما بينها تراوحت بين نسق الرفض من الاخر(الزوجة/القبيلة) وبين نسق التخيل يقول:

أَلاَ أَمُّ عَمْـــرو أَجْمَعَـــتْ فَاسْـــتَقَلَّتِ ... وَمَـــا وَدَّعَـــتْ جِيرانَهـــا إِذْ تَوَلَّـــتِ

وَقَـــدْ سَـــبَقَتْنَا أُمُّ عَمْـــرو بِأَمْرِهـــا ... وَكَانَـــتْ بِأَعْنَـــاقِ المَطِـــيِّ أَظَلَّـــتِ

بِعَيْنَـــيَّ مَـــا أَمْسَـــتْ فَبَاتَـــتْ فَأَصْـــبَحَتْ ... فَقَضَّـــتْ أُمُـــوراً فاسْـــتَقَلَّتْ فَوَلَّـــتِ

فَـــوَا كَبِـــدَا عَلَـــى أُمَيْمَـــةَ بَعْـــدَما ... طَمِعْـــتُ, فَهَبْهَـــا نِعْمَـــةَ الْعَـــيْشِ زَلَّـــت

(ديوانه:٣٥) ان ظاهر القصيدة يوحي إلى صورة المرأة (الحبيبة/ الزوجة) التي أورد ذكرها الشنفرى في صورة شعرية جميلة تحدث فيها عن عزمها في انهاء الحياة الزوجية معه وسرعة أتخاذها لقرار الرحيل وتركها إياه دون وداع فيقف أمام هذا القرار عاجزاً لا حيله لديه سوى التأسف على ايام الحب والوصال التي كان يطمع باستمرارها إلى أن يفنى العمر, فأخذ الشاعر بالحديث طويلاً وتفصيلاً عن صفاتها الخُلقية حيث أستغرق منه هذا الحديث مساحة كبيرة شغلت أوصافها الكثير من الابيات الشعرية في حين نجده أُوجز او كادت تخلو القصيدة من ذكر صفاتها الجسدية التي اقتصرت على بيت واحد, لكن هذا الخطاب يحمل دلالات مضمرة واقنعة متعددة فحضور (أم عمرو/ القبيلة) حيلة ورمز ثقافي ينطوي على أبعاد دلالية ونسقية تكشف عن رؤية الشاعر ازاء موقف القبيلة اتجاهه وما تحمله من قرارات ظالمة تبعد فيها أبنها الشجاع (الشنفرى) بعد أن عاش في احضانها ونشأ في ربوعها وتوثقت الصلة بينه وبينها وأمن ظلها لكنها سرعان ما جفته وأجحفت حقه فأحس الشاعر بالهامشية والإهانة , هكذا كانت المرأة رمزاً معبراً ومتخيلاً لدفء القبيلة المعطاء ذات الكرم والجود لكنها كرست عطايها لابنائها الاقحاح فقط , ومن خلال القراءة الثقافية للنص نجد جميع ذلك لم يكن موجود على أرض الواقع لكنه كان نسقاً متخيلاً في فكر الشاعر ومخيلته وامنياته في انه لو عاش ذلك حقاً .

المرأة / نسق التمسك بالقيم الأجتماعية ومبادئ الاخلاق

لقد تمسك العربي منذ القدم بالمبادئ الاساسية المتعلقة بالأخلاق والعفة والحفاظ على قيم الرجولة ولم يختلف عنهم هؤلاء الأغربة الهجناء حتى وأن كانت النظرة إليهم على الضد , لذلك احتوت خطاباتهم أنساق تؤكد على هذا المضمون ويتجلى في هذا المعنى خطاب السُليك بن السَلكة بقولة:

يَعَـــافُ وِصَـــالَ ذَاتِ الْبَـــذْلِ قَلْبِـــي وَيَتَّبِـــــعُ الْمُمَنَّعَـــــةَ النُّـــــوَارَا

وَمَـــا عَجِـــزَتْ فَكِيهَـــةُ يَـــوْمَ قَامَـــتْ بِنَصْـــلِ السَّـــيْفِ وَاسْـــتَلَبُوا الْخِمَـــارَا

(ديوانه:٨٨) النص يكشف عن صورة تقابلية بين الشاعر وامرأتان الأولى السهلة التي وصفها بذات البذل والتي يترفع عن وصالها ولا تستهوي مفاتنها والثانية العفيفة الشريفة التي ذكرها بالممتنعة النوار وهي التي تستهوي نفس وقلب الشاعر , فهو لا يبحث عن اشباع الغرائز وانما يبحث عن اسمى من ذلك وهي الحبيبة بعيداً عن مفاتن الجسد الحسية , فهذا النسق يتضمن معنى المعارضة ورفض الآخر المختلف وعدم الاكتراث له ازاء الذات المحافظة, والنموذج النسقي هو تحول الدلالات من الحسي الى الروحي ورفضه الخروج على المبادئ الاساسية المتعلقة بالأخلاق والعفة وحفاظه على قيم الرجولة , فاذا تفاضلت امرأتان انتصرت أكثرهما أنوثة وعفة وصعوبة في نيل المراد.

وإلى نفس المعنى تذهب القراءة الثقافية لقول الشَنفرى:

لَقَـــدْ أَعْجَبَتْنِـــي لاَ سَـــقُوطاً قِنَاعُهـــا إِذَا مَـــا مَشَـــتْ وَلاَ بِـــذَاتِ تَلَفُّـــتِ

....

تَحُـــلُّ بِمَنْجـــاةٍ مِـــنَ اللَّـــومِ بَيْتَهَـــا إِذَا مـــا بُيُـــوتٌ بِالْمَذَمَّـــةِ حُلَّـــتِ

كَـــأَنَّ لَهَـــا فِـــي الأَرْضِ نِسْـــياً تَقُصُّـــهُ عَلَـــى أَمِّهَـــا وإِنْ تَكَلَّمْـــكَ تَبْلَـــتِ

(ديوانه:٣٥-٣٦) إن قراءة هذا النص تكشف عن نسقين الأول ظاهر معلن : وهو اعجاب الشاعر بصاحبته التي بدأ بذكر صفاتها الخُلقية واعتبرها مقياس للجمال الأنثوي فهي وقور وخجول لايسقط قناعها وخمارها في سيرها ولا تتلفت وتنظر الى ماحولها وتصون بيتها عن كل رذيلة ولا ترفع رأسها ونظرها عن الارض حياءً وعفةً كأنما تبحث عن شيء سقط منها وضاع, والثاني مضمر خفي: وهو(نسق النظرة الظالمة) والصراع بين الشاعر وثقافة المجتمع ورغبته في عكس وتغيير هذه الثقافة و الصورة المأخوذة عنهم التي جذرت النظرة الدونية عليهم بابتذالهم وتحقيرهم وابتذال طبائعهم واختياراتهم التي ظن المجتمع عن أن نظرتهم للمرأة نظرة سطحية تستهويهم ذات البذل والغانيات وذلك لأنهم منبوذين ومتمردين فلا بد أنهم يبحثون عمن تناسب طبقتهم وترضى بهم , فتحول خطاب الشاعر من المفرد الى

خطاب الجماعة(الأغربة السود) الرافض لهذه الاتهامات وتحول الدلالات النسقية للتأكيد على السمات الخُلقية وعدم الخروج عن مبادئ العفة والشرف المتعلقة باختيار النساء والميل اليهن .

المرأة / نسق الغياب– نسق الانتماء

إن المرأة في الأدب بصورة عامة والشعر بصورة خاصة إنما هي نموذج مصنع ومخزون في مخيلة المؤلف يقوم بإستدعاءه اواقصاءه متى شاء وذلك لان الطبيعة الذكورية تميل الى ابقاء الأنوثة مجازاً ووهماً ومادة للخيال كي تبقى مطلوبة وجذابة وسرعان ما تنتهي هذه الجاذبية بمجرد انتقالها الى الواقع المحسوس (انتظر بتصرف,الغذامي,١٩٩٨: ٤٢) وهذا الامر ينطبق على الشعراء الأغربة ايضاً كونهم جزء من الجنس الذكوري لذلك نلاحظ استدعاء المرأة أو اقصائها لديهم يحمل أنساقاً مضمرة يقصدون من خلالها إثارة الانفعالات لدى المتلقي سلباً أو أيجاباً, فمثلاً استدعاء الحبيبة لدى عنترة يحمل دلالة التقديس, فلا يذكرها الا بموقف ومقام يليق بها , يقول:

يَـــا دَارَ عَبلَـــةَ بـــالجِواءِ تَكَلَّمـــي ... وَعَمِـــي صَـــبَاحاً دارَ عَبلَـــةَ واسِـــلَمي ...

فَوَقَفْـــتُ فيهـــا نـــاقَتِي وَكأَنَّهَـــا ... فَدَنٌ لِأَقضِيَ حَاجَةَ المُتَلَوِّمِ

وَتَحُـــلُّ عَبلَـــةُ بـــالجِواءِ وَأَهلُنـــا ... بِالحزْنِ فَالصَمّانِ فَالمُتَثَلَّمِ

حُيِّيـــتَ مِـــن طلَـــلٍ تَقـــادَمَ عَهْـــدُهُ ... أَقوى وَأَقفَرَ بَعدَ أُمِّ الهَيْثَمِ

(ديوانه:١١٧–١١٨) فقراءة النص قراءة ثقافية تكشف أنه قد تضمن نسقان هما (الغياب والانتماء) فقد اختفى وتخاتل خلف أسمها رمزاً ثقافياً نسقياً معبراً عن غياب القبيلة التي يبحث عنها الشاعر لتكون داره ومستقره والذي يأمل أن ينعم بالعيش معها وفيها , ويبرز لنا ظاهر الخطاب مرارة النأي والبعد والغياب الذي يعانيه عنترة وبأنه متى ما حاول الاقتراب من حبيبته / قبيلته بعدت عنه, فتحمل دلالة الحبيبة حاجة الشاعر الى القرب والدفء والامان خاصة مع وجود الحاجز الاجتماعي الذي عانى منه هؤلاء الأغربة ومنهم عنترة ونبذهم من قبائلهم وعدم الأعتراف بأنتمائهم فلجأ الشاعر لأستخدام وسيلة ليتجاوز بها هذه الازمة وهي إيجاد معادل موضوعي يمثل طلل الحبيبة الغائبة , ويستمر عنترة في اسقاط امنياته التي تمناها في قبيلته على معشوقته عبلة, وتعتبر هذه الابيات خطاباً ثقافياً يخالف ما يمكن أن نقرأه في قصائد الغزل والوقوف على الاطلال لأنه يقوم على مبدأ الأختلاف ومحاولة عنترة سد النقص الذي طالما عانى منه خاصة بما يتعلق باللون والنسب, فوصفه لرحيل عبلة وقبيلتها ماهو الا خطاب هامشي سيطرت عليه فكرة أساسية هي نسق الانتماء واللانتماء, فكأنما يحاول عنترة أن يقول كلما حاول الاقتراب والانتماء بعدت عنه القبيلة وقابلته بالهجر والاقصاء وهنا تكمن المفارقة, فمن غير المعقول بل ولا يمكن

استيعاب فكرة أن عنترة بن شداد العبسي الفارس الشجاع المغوار يقف ويبك على أطلال الحبيبة الراحلة لكنه خطاب مبطن يحمل دلالات نسقية أبعد واعمق من ذلك وهو نسق رحيل القبيلة والصراع الابدي في الاعتراف به كونه فرداً من افرادها.

وتجدر الاشارة إلى أن المحرك الاساسي في معلقة عنترة هو نسق الانتماء واللانتماء فمنذ مطلع القصيدة الطللي سيطر شعور اللانتماء وظل مستمراً إلى نهاية المعلقة , فنجده حاول بشتى الطرق أثبات ذاته وهويته وانتمائه عن طريق الحب والحرب اللذان يحتاج كل منهما الى الرجولة والقوة والشجاعة وربما الاخير لعب دوراً اساسياً في اعتراف قبيلته به فيما بعد, فخسارة حبيبته جعله يكرس غايته في اسلال سيفه وامتطاء جواده فبرز فارساً عظيماً أعطته الوثيقة التي مكنته من استحقاق الانتماء والأعتراف القبلي الذي طالما انشده.

المرأة/ نسق الفخر الذاتي ونفي الآخر

لطالما اختلف فخر الأغربة السود عن الفخر المعروف لدى العرب لأنه جاء غير مقصود لذاته لكنه يحمل انساقاً مضمرة من خلال عدم الاعتبار للآخر وسحق الخصم وإلغاءه ويكون انطلاق فخرهم من مواضع انتقاصهم ومهانتهم, فكان شعرهم تعبيراً عن الارادة والاستهانة بالموت الذي يبدو في ظاهره فخراً لكنه يحمل دلالات خفية تكشف عن صراعاتهم مع الحياة والقبيلة من اجل تحقيق الانتماء.

فهذا تأبط شراً يقول:

أَلاَ عَجِبَ الْفِتْيَانُ مِنْ أُمِّ مَالِكٍ	تَقُولُ أَرَاكَ الْيَوْمَ أَشْعَثَ أَغْبَرَا
تَبُوعاً لآثَارِ السَّرِيَّةِ بَعْدَمَا	رَأَيْتُكَ بَرَّاقَ الْمَفَارِقِ أَيْسَرَا
فَقُلْتُ لَهَا : يَوْمَانِ, يَوْمُ إِقَامَةٍ	أَهُزُّ بِهِ غُصْناً مِنَ الْبَانِ أَخْضَرَا
وَيَوْمٌ أَهُزُّ السَّيْفَ فِي جِيدِ أَغْيَدٍ	لَهُ نُسْوَةٌ لَمْ تَلْقَ مِثْلِي أَنْكَرَا

(ديوانه:٢٦) لقد احدث الشاعر في هذا الخطاب الشعري القائم على الحوار صورة انعكاسية قائمة على محادثة بينه وبين امرأة (أم مالك) ليؤكد شجاعته واقدامه ومشاركته الفعلية ورغبته في الحرب لينفي حقيقة ماقالته هذه المرأة حول هروبه وانسحابه من المعركة وعدم مواجهة نساء بني نفاثة اللاتي ارتدين زي الرجال وبرزن للقتال عندما غار تأبط شراً وجماعة من الصعاليك على قبيلتهم وكان رجالهم في غزوة ,(ديوانه:٢٦) استطاع الشاعر من توظيف كنية (أم مالك) توظيفاً فنياً ربط من خلالها السابق باللاحق بمرونة نسبية داخل النص الشعري من أجل استوحاء مؤثرات لغوية في نفس المتلقي لينقل ما يدور في فكره من دلالات نسقية مضمرة ويبرر فعلة من خلال عدم الاعتبار للآخر وسحق الخصم وإلغاءه ومن

ثم تحقيق الوجود والاعتراف الضمني بالقدرات والفخر بالبطولات وأبراز الصفات الحسنة والجانب المشرق من شخصيته وهي كما قال الغذامي من " شروط النسق الذي يقوم على إنكار الآخر في سبيل تعزيز الذات"

(الغذامي:١٣٩) وفي ذلك أيضاً قول عنترة :

إنّـي امْـرؤٌ مِـن خيـر عـبْسٍ مَنْصِـبَاً شَـــطْرِي وأحمِـــي سَـــائِرِي بالمُنْصـــل

(ديوانه:٩٨) توحي القراء الظاهرية للبيت الشعري بحقيقة طرح الشاعر مفارقة أخلاقية قائمة على الإعلاء من مستواه الاجتماعي من جهة الأب فأبوه من كبار بني عبس وسادتهم والأعتزاز بنفسه من جهة الأم ويبدو أن ذاتية الشاعر هي التي جعلته يقدم الفخر بقبيلته على نفسه حيث وضع "نفسه تحت تصرفه لكي يكون للآخر ويكون الآخر له" (الحديثي:١٤) لكن القراءة المتمعنة للنص تكشف حقيقة الأنساق المتعددة القائمة على الصراع بين ثنائيات (الذات والآخر) وبين (الأمل واليأس) وبين (القرب والبعد) فأمه الحبشية السوداء كانت سبباً في معناته وفقره وتشرده وحياته المضطربة وعدم الاحترام لكنه استطاع بذكائه وبقدرته التصويرية من تغيير مجرى الاحداث فلفظة (منصباً) تحوي نسقاً مضمراً دال على صيغة التمييز والمكانة والرفعة التي أكتسبها من ابيه وامه السوداء معاً فمن خلال شجاعته أستطاع أن يثبت وجودة ويكتسب حق الاعتراف وتحقيق الذات.

كما ولم تخلو أغلب خطابات الشنفرى الخاصة بالمرأة من الابعاد الدلالية العميقة والأنساق الثقافية الخفية التي تكشف فخر الشاعر بنفسه وأمه ونسبة وخير ما نجد ذلك في لاميته الشهيرة حين أستهلها بالفخر بأمه حين قال:

أَقِيمُـوا بَنـي أُمِّـي صُـدُورَ مَطِـيِّكُمْ فَـإِنِّي إِلـى قَـوْمٍ سِـوَاكُمْ لأَمْيَـلُ

(ديوانه:٥٥) لم يكن يقصد المعنى الظاهري بقدر قصده إلى ما وراء ذلك وهو نسق الفخر ذو الدلالة الخاصة الخفية بتحويل المهانة والانتقاص من هذه المرأة الحبشية إلى فخر واعتزاز وإحياء المودة والقربى ووصل الأرحام .

ويطالعنا عنترة في هذا المعنى ايضاً فيقول:

هَـلاَّ سـألتِ الخيـلَ يـا ابنـةَ مالـكٍ إن كنـتِ جاهلـةً بمـا لـم تعْلمـي

إذْ لا أزالُ علـى رِحالـةِ سـابح نَهْـدٍ تعَـاورهُ الكُمـاةُ مُكَلَّـمِ

طَـوْراً يُجَـرَّدُ للطَّعـان وتـارةً يَـأوي إلـى حصـدِ القِسِـيِّ عَرَمْـرَمِ

يُخْبِـرْك مـن شـهِد الوقيعـةَ أننـي أغْشـى الـوَغَى وأعِـفُّ عنـد المغْـنَمِ

....

جَـــادتْ يـــدايَ لـــه بعاجِـــل طعْنَـــةٍ بمثقَّـــفٍ صَـــدْق الكعـــوب مقـــوَّمِ

....

فشـــككتُ بـــالرُّمحِ الأصـــمّ ثِيَابـــه لـــيسَ الكـــريمُ علـــى القَنَـــا بمحـــرَّمِ

(ديوانه:١٢٣-١٢٤) إن ظاهر الخطاب يكشف عن مطالبة الشاعر بسؤال محبوبته عن خلقه في المعركة بصيغة خطاب الثقة بالنفس, اذ يخبرها بأن لا تسأل القوم الذين شهدوا المعركة كي لا يدفعهم خوفهم منه بتزيف الحقائق والمبالغة في الكلام عن شجاعته بل تسأل الخيل عنه سواء كانت خيل الاعداء ام خيل الاصحاب لتجيبها بصدق ,ان النص يحوي دلالات نسقية مضمرة متوارية خلف المعنى الظاهري قائمة تنويع مصادر الخبر لعبلة من أجل كشف الحقائق والوصول الى الغاية وهو قوله "وأعف عن المغنم" دلالة نسقية يقصد بها ترفعه عن المغانم في وقت يتدافع اسياد القوم من أجل الحصول عليها لكنه يذهب الى ابعد من ذلك فليس المغانم عنده كل شيء فعزة نفسه تأبى عن ذلك , وهنا مفارقة قائمة على (العلو والدناءة) دالة على التعارض بين أخلاق الشاعر(عالمه الخاص به/ العلو والترفع) وبين نظرة المجتمع اتجاه هؤلاء الأغربة (الدونية والدناءة) ونظرة حبيبته والبرود العاطفي اتجاهه سعياً منه لترغيب الآخر والقبول به, فلم يكن يقصد المعنى الظاهري بقدر قصده إلى الدلالة الخاصة الخفية بتحويل المهانة والرفض وسيلة للفخر عن طريق نبل أخلاقة وتمسكه بالقيم والمبادئ الاصيلة.

المرأة / نسق صورة الصحراء

لقد كانت الصحراء موطن أكثر هؤلاء الأغربة خرجوا اليها وارتموا في احضانها نتيجة تمردهم على قبائلهم فتفاعلوا معها وتعلقوا بها كثيراً وتأثروا بتفاصيلها فطبعت بطباعهم قساوتها لذلك كانت صورة الصحراء مصدر الهام لشعراء هذه الفئة فكانت دلالة الصحراء كثيرة الحضور بخطاباتهم بشكل مباشر وصريح في نصوص مفرد أو مختفية متوارية تحت رموز واقنعة ومنها (المرأة) وخير ما يمثل ذلك قول السُليك عندما اثنى على فكيهة بنت قتادة التي أجارته وحمته بقولة:

لَعَمْـــرُ أَبِيـــكَ وَالأَنْبَـــاءُ تُنْمَـــى لَـــنِعمَ الْجَـــارُ أُخْـــتُ بَنِـــي عُـــوَارَا

مِـــنَ الْخَفَـــرَاتِ لَـــمْ تَفْضَـــحْ أَبَاهَـــا وَلَـــمْ تَرْفَـــعْ لإِخْوَتِهَـــا شَـــنَارَا

كَـــأَنَّ مَجَـــامِيعَ الأَرْدَافِ مِنْهَـــا نَقِـــيَ دَرَجَـــتْ عَلَيـــهِ الـــرِّيحُ هَـــارَا

(ديوانه:٨٨) لطالما مثلت المرأة الحس الجمالي الأنثوي الموحي للشاعر لكن السُليك أمتدح المكارم الخُلقية واشاد بها فهي في هذه المقطوعة محور أهتمامه النفسي فأخت بني عوار كانت نعم الجار الحامي ازاء وقوفها بوجه من أراد قتل الشاعر على الرغم من كونها امرأة , فالصورة الشعرية تتناول تشبيه

أرداف بنت بني عوار بالكثبان الرملية الغير ثابتة التي تمر عليها الرياح فلا تبقى ثابتة, فالبعد الظاهري للنص ودلالاته توضح هذا المقصد لكن عند استبار أعماقها ودراسة ماوراء هذه الدلالات نلحظ ان هذه التشبيهات سواء كانت مفردة او مركبة أنما جاءت تنطوي على دلالات نسقية خفية تعكس حقيقة الحياة الصحراوية الشظفة التي قطنها الشاعر, والتي أستطاع من صياغتها في صورة والفاظ معبرة تطلبت منه مهارة كبيرة وقدرة على تحريك اللغة وربط بعضها ببعض في قالب لغوي محكم وخلق عوالم وفق رؤيته هو بثقافة جديدة , وما كان هذا التصوير الدقيق الا بسبب المشاهد الحقيقية المعاشة في القفار اثناء تمرده وثورته على المجتمع.

وإلى نفس المعنى يذهب تأبط شراً فيقول:

قَلِيـــلُ غِـــرَارِ النَّـــوْمِ أَكْبَـــرُ هَمِّـــهِ ... دَمُ الثَّـــأرِ أَوْ يَلْقَـــى كَمِيّـــاً مُسَـــفَّعَا

يُمَاصِـــــعُهُ كُـــلّ يُشَـــجِّعُ قَوْمُـــــهُ ... وَمَـــا ضَـــرْبُهُ هَـــامَ العِـــدَا ليُشَـــجَّعَا

قَلِيـــلُ ادِّخَـــار الـــزَّادِ إلاَّ تَعِلّـــةً ... فَقَـــدْ نَشَـــزَ الشُّرْسُـــوفُ وَالْتَصَـــقَ المِعَـــا

يَبِيـــتُ بِمَغْنَـــى الْـــوَحْشِ حَتَّـــى أَلِفْنَـــهُ ... وَيُصْـــبِحُ لاَ يَحْمِـــي لَهَـــا الـــدَّهْرَ مَرْتَعَـــا

(ديوانه:٣٨-٣٩) هذه الابيات الشعرية مكملة لأبيات تم تناولها وقراءتها قراءة ثقافية وقد احتوت على مجموعة من الأنساق المضمرة والتي ورد ذكرها سابقاً في (المرأة / نسق الرفض) فمع طبيعة حياته الصحراوية المتصعلكة وقلة الطعام لابد ان تكتمل الصورة بحضور الأرق والسهر وتحمله لأعظم الأمور ونبذ القبيلة وعيشه بلا جغرافيا وضعفه وقلة طعامه وهزالة جسده كل هذه الاشياء أنما ولدت دلالات نسقية مرتدية اقنعة جمالية ولغوية ليعبر بها أنه ما اكتسب تلك الصفات لولا الصحراء وتأثيرها عليه ففخر بها لأنه لا يستطيع أن يفخر بعراقة النسب- هم القبيلة الاول- لعدم امتلاكه له والتي تركها بسببه , مما جعله يستأنس بالوحوش فيراهم أجدر من الناس بالمعاشرة بل المعادلة لديه كانت قائمة على أن الناس هم الوحوش (أنظر بتصرف,بورديم,٢٠٠٢: ١٨) وفي الحقيقة ان خطابه الشعري دل على النسق الخفي الذي اكسبه هذه الصفات وهو نسق الصحراء وقساوتها التي كانت سبباً في خشونته وصلابته وسرعة جرية فقد قيل عنه كان "... حاد البصر والسمع , عداء يلحق الخيل والضباء" (خليف:٤٠) وهنا لابد من العودة الى السبب الاساسي وراء ظهور هذا النسق الا وهو موقف الرفض من قناع (الفتاة/ القبيلة) فهاجسه الداخلي الأكبر وصراعه كان ضد التميز العنصري والعرقي من قبل الانظمة القبلية الجائرة.

المرأة/ نسق الضمير

إن المؤثرات النفسية الناتجة عن حالة الفقد والخسارة أثر كبير في ازدواجية الخطاب الشعري وهذا ما كشف عنه قول تأبط:

ألاَ تِلْكُمَــا عِرْسِــي مَنِيعَــةُ ضُــمِّنَتْ مِــنَ اللهِ إثْمــاً مُسْتَسِــراً وعلنــا

تَقُــولُ تَرَكْــتُ صَــاحِباً لَــكَ ضَــائِعا وَجِئْــتَ إلَيْنَــا فَارِقــاً مُتَبَاطِنــا

إذَا مَــا تَرَكْــتُ صَــاحِبِي لِثَلاَثَــةٍ أوْ اثْنَــيْنِ مِثْلَيْنَــا فَــلاَ أُبْــتُ آمِنــا

(ديوانه:١٠٣-١٠٤) فحالة الحزن محرك خفي وفاعل داخل النص ومتحكم بالانفعالات وموجه لسلوكيات الشاعر وخطابه ازاء الفقد الذي آلم نفس الشاعر أضافة الى تأنيب الضمير مما أستوجب جلب رمز المرأة (الزوجة) للقيام بالعملية الملازمة لها والمرتبطة بطبيعتها وهي عملية اللوم واتهامها اياه بالتخلي عن الصاحب وتركه للموت , لقد تضمن الحوار رؤية نسقية مضمرة دالة على أن الزوجة لم تكن سوى معادلاً موضوعياً لمجموعة الهواجس والأحاسيس المراودة لنفس الشاعر والتي وجد حرجاً في الافصاح عنها علناً, فجاءت المرأة تعبيراً عن صوت الذات الداخلي له فكانت شخصية الزوجة اللائمة وعاء احتوى تلك الوساوس , ويبدو أيضاً ان الحوار مع هذه الزوجة يحمل رؤية مضادة للآخر بجعلها وسيلة لاستعراض ايجابياته كالشجاعة والبطولة والاقدام فهو يحمل دلالة الفخر الذاتي وصوت الشاعر الذي حاول إيصاله في محاولته لإثبات الذات التي أقصاها الآخر, " فالخطاب يحمل أنساق عدة تتكون من قوانين واقعة ومنجزة , وهذه الأنساق تتصارع داخل الانسان الحي وخارجه" (Mahmoud,I.M. ,٢٠٢٢, مجلة جامعة تكريت,٢٩(١,١٠): ٧٠-٨٦) ليكشف صراعه الداخلي بين المخاوف والتردد من جهة وبين الشجاعة والاقدام من جهة أخرى.

المرأة / نسق المتاع

لطالما عدّ الشعراء الجاهليين المرأة "جسد خاوٍ من العقل والفطنة والحكمة" (الغذامي:١٢-٢٣) وهذا القول له دلالاته حيث "ان الشاعر الجاهلي لا ينظر إلى المرأة نظرة حيادية أو متساوية وإنما ينظر إليها على انها مجال لإفراغ الشهوة التي يتحقق عبرها الحفاظ على النوع عن طريق التناسل" (ماكواري ,١٩٨٢: ١٥٣) لكن الشعراء الأغربة لم تكن لديهم هذه النظرة على المرأة , لكن ثمة خطاب واحد كانت نظرته للمرأة مشابه لتلك النظرة الغير منصفة وهو قول تأبط يتوعد من قتل أخيه عمرو بن جابر:

وَحَرَّمْــــتُ النِّسَــــاءَ وَإنْ أُحِلَّــــتْ بِشَــــوْرٍ أوْ بِمَــــزجٍ أوْ لِصَــــابِ

حَيَــــاتِي أوْ أزُورَ بَنِــــي عُتَيْــــرٍ وَكَاهِلَهَــــا بِجَمْــــعٍ ذِي ضَــــبَابِ

إذَا وَقَعْــــتُ لِكَعْــــبٍ أوْ خُثَــــيم وَسَــــيَّارٍ يَسُــــوغُ لَهَــــا شَــــرَابِي

(ديوانه:١٨) نحن امام نص يحمل ثوران ازاء مقتل الأخ وبذل الجهد في سبيل الأخذ بالثأر وتحقيق الغاية وفق القاعدة التي تقول انتفاء الموت لا يكون الا بالموت , فلفظة (النساء) مضمر نسقي يعكس الثقافة الجاهلية القائمة على أن المرأة جسد لإشباع شهوة فقط لذلك نجده قرنها بالعسل واشباهه واصبحت النساء من الامور المادية المسخرة للرجل ليتلذذ ويلهو بها متى شاء.

الخاتمة:

خلص البحث إلى نتائج عدة يمكن إجمالها بما يأتي:

١- جل شعرهم وصل الينا مقطعات وذلك تماشياً مع نمط الحياة التي عاشوها والتي أتسمت بعدم الاستقرار أضافة الى أن نبذهم وطردهم من المجتمع لم يحقق لهم الاتصال الكبير مع الرواة من الناس.

٢- يغلب على شعرهم الذاتية , فجاء شعرهم الخاص بالمرأة ينطوي على أنساق ثقافية مضمرة لمعالجة مشاكلهم التي عانوها ومشاكل أمهاتهم الحبشيات والجنس الهجين بصورة عامة انطلاقاً من ذواتهم.

٣- أتسم شعرهم بالواقعية والصدق والابتعاد عن التصنع وذلك عن طريق الموضوعات والأغراض التي طرقوها والأساليب التي استخدموها اذ جاء شعرهم الخاص بالمرأة يحمل انساقاً تكشف طبيعة الظلم والامتهان لهذه الفئة وجميعها تعطي تصوراً لطبيعة واقعهم المعاش.

٤- تميز اغلب شعرهم بالابتعاد عن المقدمات الطللية (نستثني من هذا الحكم عنترة بن شداد) ولم يأتي ذكر المرأة في الغالب الا رمزاً وقناعاً تتوارى تحته دلالات خفية وانساقاً مضمرة يقصدها الشاعر.

٥- تميز شعرهم بعدم التصريح المباشر والابتعاد عن الفحش الذي كان سارياً في الالفاظ والمعاني خاصة في شعر الغزل والهجاء في تلك الفترة فقد جاء عفيفاً بعيداً عن الفحش والبذاءة اضافة الى تمسكهم بالعادات والتقاليد الاجتماعية الخاصة بالأخلاق والعفة وقيم الرجولة.

٦- يختلف فخرهم عن الفخر المعروف لدى العرب لأنه جاء غير مقصود لذاته لكنه يحمل نسقاً مضمراً يتعارض مع طبيعة الفخر, ففخرهم كان انطلاقاً من مواضع الانتقاص والمهانة واعتبارها مزية وسمة للتفاخر وسحق الآخر .

٧- شعرهم الخاص بالمرأة يحمل دلالات خفية تكشف عن صراعاتهم مع الحياة والقبيلة من اجل تحقيق الانتماء .

٨- القراءة الثقافية لخطابات الشعراء الأغربة السابقة تكشف انساق الخروج على ما ظنت قبائلهم أنه مألوف ومسموح لديهم فهم قارنوا بين الجانب الحسي والجانب الروحي فيما يتعلق بعلاقاتهم مع المرأة بشكل عام والحبيبة بشكل خاص فلم تستهويهم الا ذوات الأخلاق والعفة والشرف.

Sources and references

The Holy Quran
- Mahmoud, I. M. (2022). Influence and influence in light of the cultural pattern between Levantine and Andalusian criticism. Tikrit University Journal of Human Sciences, 29(10, 1), 70–86. https://doi.org/10.25130/jtuh.29.10.1.2022.04
- Taj Al-Arous from Jawaher Al-Qamoos, by Sayyid Muhammad Mortada Al-Husseini Al-Zubaidi, edited by: Dr. Hussein Nassar, reviewed by: Abdel-Halim Al-Tahawi and Abdel-Sattar Ahmed Farraj, Kuwait Government Press, No: Edition, 1974.
- Rebellion and Alienation in Pre-Islamic Poetry, Abdel Qader Abdel Hamid Zidan, Dar Al-Wafa, Alexandria, 1st edition, 2003 AD.
- See, adapted from: The Culture of Illusion, Approaches to Women, the Body, and Language, Abdullah Muhammad Al-Ghadhami, Arab Cultural Center, Casablanca, 1st edition, 1998 AD.
- Studies in ancient Arabic poetry, Dr. Bahjat Abdul Ghafour Al-Hadithi, Higher Education Press, Baghdad
- Damen, M. S. (2022) The historical role of veteran women in early Islam. Tikrit University Journal of Human Sciences, 29(2), 399–413. https://doi.org/10.25130/jtuh.29.2.2022.17
- Diwan Tabat Shara, prepared and presented by Talal Harb, Dar Sader, Beirut, 1st edition, 1996 AD.
- Diwan of Antara bin Shaddad, explained and commented by: Muhammad Marouf Al-Saadi, Dar Al-Kutub Al-Ilmiyyah, Beirut, Lebanon, 2009 AD, 4th edition.
- A collection of poetry by Al-Sulaik bin Al-Salka, prepared and presented by Talal Harb, Dar Sader, Beirut, 1st edition, 1996 AD.
- Diwan Al-Shanfari, prepared and presented by: Talal Harb, Dar Sader, Beirut, 1st edition, 1996 AD.
- Black poets and their characteristics in Arabic poetry, Abdo Badawi, Egyptian Book Authority, Cairo, 1973 AD.
- The vagabond poets of the pre-Islamic era, Dr. Youssef Khalif, Library of Literary Studies, Dar Al-Maaref, Cairo, Nile Corniche, Egypt, 3rd edition, 1959.
- Poetry and Poets, Abu Muhammad Abdullah bin Muslim bin Qutaybah Al-Dinouri (d. 276 AH), edited by Ahmed Muhammad Shaker, Dar Al-Maaref, Nile Corniche, Cairo, vol. 1.
- Tribal fanaticism and its impact on Umayyad poetry, Dr. Ihsan Al-Nas, Dar Al-Yaqaa Al-Arabiyya, Beirut, ed./bla, 1963 AD
- The Age of Structuralism, Edith Creswell, translated by: Jaber Asfour, Dar Al-Sabah, Kuwait, 1st edition, 1993 AD.
- The Pre-Islamic Era, Dr. Shawqi Deif, Dar Al-Maaref, Cairo, 11th edition
- The Ocean Dictionary by the scholar Majd Al-Din Muhammad bin Yaqoub Al-Fayrouzabadi, ed.: Heritage Investigation Office at Al-Resala Foundation, under the supervision of Muhammad Naeem Al-Arqsusi, Al-Resala Foundation, Beirut, 7th edition, 2003.

- Dictionary of Ethnology and Folklore Terms, Ecke Hultkrans, edited by: Muhammad Al-Gohary and Hassan Al-Shami, Dar Al-Maaref, General Authority for Cultural Palaces, Egypt, 1st edition, 1972 AD.
- Lisan al-Arab, Ibn Manzur (d. 360 AH-711 AH), a new edition edited by Amin Muhammad Abd al-Wahhab, Muhammad al-Sadiq al-Ubaidi, Arab Heritage Revival House, Arab History Foundation, Beirut, 1st edition, 1995 AD.
- Al-Mizhar in the sciences of language and its types, Abd al-Rahman Jalal al-Din al-Suyuti, his explanation and setting, and he commented on its footnotes, Muhammad Ahmad Jad al-Mawla Bey, Muhammad Abu al-Fadl Ibrahim, Ali Muhammad al-Bajjawi, Al-Maktabah al-Asriyah, Beirut, without copy, 1987.
- Al-Mufadliyat, Al-Mufaddal bin Muhammad Al-Dhabi, edited by Ahmed Muhammad Shaker and Abdul Salam Muhammad Haroun, Dar Al-Maaref, Cairo, 6th edition, 1988 AD.
- Encyclopedia of critical terminology, paradox and its attributes, Dr. C. Muik, translated by Abdul Wahid Lulu'a, Al-Rasheed Publishing House, Baghdad, 1982 AD.
- The Contemporary Arabic Poetic Text, Abdel Hafeez Bordem, Dar Al-Bashaer for Publishing and Communication, Algeria, 1st edition, 2002 AD.
- Dr. Abdullah Al-Ghadhami and Dr. Abdul-Nabi Astif, Cultural Criticism or Literary Criticism? , Dar Al-Fikr Al-Moazam, Beirut, 1st edition, 2004 AD
- Cultural Criticism, A Reading of Arab Cultural Patterns, Abdullah Muhammad Al-Ghadhami, 3rd edition, 2005 AD, Arab Cultural Center, Kingdom of Morocco, Casablanca.
- John Macquarie: Existentialism, translated by Imam Abdel Fattah Imam, The World of Knowledge, Kuwait, 1982 AD.